مقاصد عناية الحضارة العربية الإسلامية بعلم الأصوات

أ.د خالد فهمي
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

مقدمة

إن أدبيات الأصوات العربية كثيرة ومتنوعة فى التراث اللغوى عند العرب، تشترك جميعا فى السعى نحو تحقيق عدد من المقاصد العامة والخاصة، ويختلف كل نوع عن الآخر فيما يبغيه من مقاصد جزئية.

وفيما يلى فحص لنماذج من هذه الأدبيات التى وصلت إلينا وانشغلت بتحرير حقائق الأصوات العربية وما يدور فى فلكها من معارف سعيا إلى الكشف عن مقاصد هذا الفرع المهم من فروع علوم اللغة فى الحضارة العربية الإسلامية وسنقسمها على الأنواع التالية:

أولا- أدبيات الصوتيات العامة.

ثانيا- أدبيات الصوتيات القرآنية.

ثالثا- أدبيات المسائل الصوتية المفردة.

رابعا- أدبيات المسائل التابعة للصوتيات (أدبيات علم اللغة الكتابى= الخطاطة).

والظاهر من هذه الأنواع جميعا توجهها إلى تحقيق بعض المقاصد العامة من مثل:

أولا- إقامة تكليف قراءة الكتاب العزيز، وإتقانها، وتحسين أدائها، وتصحيح ذلك.

ثانيا- حفظ طريقة التلاوة الصحيحة المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم، وإقامة الأدلة على ذلك وهى فرع من مقصد حفظ الدين.

ثالثا- محاربة أخطاء التلاوة المتولدة عن عدم تحصيل صفات الأصوات وما به قيام ماهيتها (محاربة اللحن الجلى) المتعلق بحق الأصوات.

رابعا- محاربة أخطاء التلاوة المتولدة عن عدم تحصيل الصفات العارضة وما به حسن أدائها فى مواضعها وسياقاتها (محاربة اللحن الخفى) المتعلق بمستحق الأصوات.

خامسا- التيسير على عموم المسلمين لتحصيل القراءة الصحيحة للذكر الحكيم ولاسيما الأعاجم منهم.

وهذه المقاصد العامة لعلم الأصوات التى شققتها هنا بدت واضحة عند تعرض لفحص أسباب ظهور هذا العلم، قديما وحديثا، فى المحيط العربى وغير

العربى، وليس أدل على ذلك من قول أرتور شاده فى (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا، أعده الدكتور صبيح التميمى، مركز عبادى للنشر، صنعاء، سنة ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م؛ ص:٣٠) :"وإذا سأل سائل: ما هو الباعث كان القرآن الشريف، فإن العجم الذين أسلموا فى القرنين الأولين من قرون الإسلام كان يهمهم للغاية أن يحسنوا قراءة المصحف الشريف، وينطقوا أصواته نطقا عربيا خالصا، ولم يرد إلى ذلك سبيلا إلى بعد تعميق المطالعة لأصوات اللغة العربية، وإحكام إنتاجها، فيظهر أن حدوث علم الأصوات عند العرب مقرون بنشوء علم التجويد" وقد سبق منى أن قررت أن أخص خصائص المنجز العربى فى العلوم اللغوية عموما والصوتية خصوصا هو دورانها حول خدمة الكتاب العزيز، فقد قلت فى بحثى(سطوة آراء سيبويه على الخالفين فى الصوتيات العربية، ضمن أعمال مؤتمر سيبويه إمام العربية، دار العلوم، بالقاهرة ٢٠١٠م : ص١٦٦): إن أحد أهم المبادئ التى أسهمت فى البناء المعرفى لعلم التجويد (أو الأصوات) كان هو الإحاطة بخصائص القرآن الكريم على المستوى الصوتى والأدائي، ونضيف هنا التفصيل الذى سيأتى فى توزيع المقاصد على الأنواع الأربعة لأدبيات علم الأصوات العربية التى ورثناها من هذه الحضارة العربية التى كان الدين العظيم المحرك الأعظم لعلومها ومعارفها:تأسيسا وتنظيما وتطويرا ومتابعة.

وفيما يلى محاولة للكشف عن مسالك هذه المقاصد وغيرها من خلال أمثلة الأدبيات موزعة على الأنواع المذكور:

(أولا) مقاصد أدبيات الصوتيات العامة.

يعد كتاب سر صناعة الإعراب، لابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ أوسع كتاب فى الحضارة العربية يتوجه لفحص النظام الصوتى للغة العربية من زوايا مختلفة ومتنوعة.

صحيح أن منجزه قائم فى الأساس على شرح منجز سيبويه المعتمد فى الأساس على منجز شيخه العظيم الخليل بن أحمد الفراهيدى لكنه يظل أعظم الأدبيات التى حللت أصوات العربية من جهة الاتساع و التفصيل و التفريع.

ويتضح من بداية الكتاب مقاصده التى حكمته ساعة توجه إلى إنجازه، وهو المقاصد تتلخص فيما يلى:

أولا- حفظ علم أصوات العربية، لقلة من يقبل على تحصيله، كما قرر فى مقدمة كتابه (١/ ٣ طبعة دار القلم دمشق بتحقيق الدكتور / حسن هنداوى، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م) ومقصد حفظ العلم متفرع عن مقصد أعلى منه هو حفظ العقل.

ثانيا- محاصرة الجهل بمفردات هذا العلم ومسائله.

ثالثا- طلب الأجر والمثوبة تحصيلا لمرضاة الله تعالى.

رابعا- التيسير على المتعلمين وقارئ الذكر الحكيم، وإعانتهم على ما به تحصيل مهارات تلاوته وحسن أدائه وترتيله.وهو سر تصميم كتابه على ترتيب حروف المعجم، ترتيبا ألفبائيا لتيسير الحصول على المعلومات من دون مشقة أو حرج، وهو ما صرفه كذلك إلى عدد من التجارب العملية من أجل التدريب على تحصيل النطق الصحيح.

خامسا- تقويم عدد من الآراء وتصحيحها ضبط لحقائق العلم. وسكوت ابن جنى عما أوردناه من مقاصد فى مطلع هذا الجزء راجع إلى استقرار هذه المقاصد من لدن الخليل وتلميذه سيبويه من بعده.

(ثانيا) مقاصد أدبيات الصوتيات القرآنية.

إن أكثر من توقف أمام صوتيات الذكر الحكيم، فدرسها وفحصها، واستخرج خصائصها وتوسع فى ذلك توسعا محمودا هم أهل التجويد، فقد تفننوا فى خدمة علم الأصوات العربية من اجل بيان الوجه الأمثل لتلاوته، وكانت مظاهر هذا التنوع ماثلة فيما يلى:

التنوع التصنيفى، فى الحجم بين متون وشروح، وفى لغة التصنيف بين منثور ونظوم وفى منهجية المعالجة، ووسائلها الإيضاحية.

التنوع العلمى، فى الانشغال بحقائق العلم كله، وفى التفرغ لمعالجة مشكلات خاصة كانت موضع إشكال.

التنوع من جهة المستهدفين، إذ ظهرت مصنفات للمبتدئين؛ استهدف التيسير والتخفيف، وأخرى لغير المبتدئين استهدف تجلية حقائق العلم وبسطها.

اتفق المصنفون فى التجويد على عدد من المقاصد التى ظهرت من أجل الوفاء بها، وبفحص عدد من هذه المصنفات المتنوعة منهجيا تأكدت هذه الحقيقة.

يقرر عبدالوهاب القرطبى المتوفى سنة ٤٦١هـ فى كتابه (الموضح فى التجويد تحقيق الدكتور غانم قدورى الحمد، ومراجعة الدكتور/ أحمد مختار عمر، طبعة معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٩٩٩م) أن المقصد الأعلى لعلم التجويد هو: تحقيق جودة تلاوة الكتاب الكريم، وصيانتها من اللحون والأخطاء. وهو الأمر الذى بدا من استهلال مقدمة كتابه، إذ يقول (ص٣٥) " نحمد الله على ما هدانا للكتاب المبين... ونصلى على نبيه الأمى الآمين... الذى اختص بخير معجزاته؛ لأنه خير المرسلين... ما تشرف بتلاوة كلامه ألسنة القارئين، ونسأله أن يجعلنا فى اقتفائهم من التوفيق على كل حال وحين، والعصمة عما يبعدنا ويشين"، ففى هذا الاستهلال- والاستهلال فى الكتب القديمة دليل على فنها ودليل على جزء من مقاصدها من وجهة نظرى- ويتجلى مقصد حياطة تلاوة الكتاب العزيز بما يقيمها، ويجودها، ويقيها الأخطاء، ويجعلها على ميزان الإتباع للقارئ الأول صلى الله عليه وسلم ويستمر القرطبى فى الكشف من مقاصد مصنفه فى مقدمة كتابه هذا، فيقرر ما يلى:

أولا- السعى نحو تحصيل تجويد القراءة، ببيان ما يستحسن منها، والتحذير مما يستقبح منها ويستحسن، ويختار منها ويستهجن.

ثانيا- طلب نقاء التلاوة من اللحن بنوعيه، رعاية لمقام الذكر الحكيم، يقول(ص/ : ٥٣-٥٤): "ولما رأيت الناشئين من قراءة هذا الزمان، وكثيرا من منتهيهم قد أغفلوا اصطلاح ألفاظهم من شوائب اللحن الخفى، وأهملوا تصفيتها من كدره وتخلصها من درنه... رأيت لفرط الحاجة إلى ذلك... أن أقتضب فيه مقالا".

ثالثا- رفع الحرج ودفع المشقة عن المتعلمين فى هذا المجال، على ما يظهر من نص الفقرة السابقة.

رابعا- ضبط مقاييس علم التجويد، وتصحيحها، وحمل المتعلمين على المران على الصواب، مقاومة لصور اللحن والفساد فى النطق.

ولا تخلو المقدمة من الحرص على بيان مقصد أخروى يتمثل فى التطلع إلى الأجر والمثوبة من الله تعالى.

وهذه المقاصد تندرج جميعا تحت مقاصد عليا من مثل:

حفظ الدين، بحفظ كتابه الكريم، وصيانته من القراءة الخاطئة، وبالإعانة على إتيان أمر تكليفى يأمر بتلاوته وترتيله وتجويده، والإتقان لها.

التيسير على المسلمين، بحفظ ما به قيام قراءة كتابهم المتعبد بتلاوته، وبتيسير تدريبهم على ذلك، وضبط قواعد التلاوة الحسنة، والتحذير من الأشياء التى تجلب الخطأ فى القراءة، وتوقع فى الإثم عند القراءة.

حفظ العقل، بتفصيل القول فى المقاييس المصححة للقراءة، وتنظيمها، وتوضحيها.

ويتضح هذه المقاصد بصورة جلية عند واحد من أشهر من عنوا بضبط هذا العلم فى تاريخ التصنيف فيه فى هذه الحضارة العريقة، ألا وهو : ابن الجزرى؛ شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣هـ فى كتابه (التمهيد فى علم التجويد) الذى يكشف فى مقدمته عن هذه المقاصد جميعا بلغة واضحة مبينة(طبعة مؤسسة الرسالة، بتحقيق الدكتور/ غانم قدورى الحمد، بيروت سنة ١٤١٨هـ=١٩٩٨م) يقول (ص:٥٢): "إن أولى العلوم ذكرا وفكرا، وأشرفها منزلة وقدرا، وأعظمها ذخرا وفخرا كلام من خلق من الماء بشرا، وجعله نسبا وصهرا... وإن أولى ما قدم من علوم: معرفة تجويده، وإقامة ألفاظه" فهذا نص واضح فى أن المقصد الأولى فى ظهور التجويد بما هو فرع من فروع الدرس اللغوى للعربية فى تراثها هو: تحقيق تجويده الكتاب العزيز، وإقامة ألفاظه على الوجه الذى تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تلقاه وجمعه من جبريل عليه السلام.

ويكرر بقية المقاصد التى ذكرناها فى تحليل مقدمة: الموضح، للقرطبى، ويظهر أنه نقل كلامه بنصه(انظر: ص٥٢)!

ولكن فحص مادة التمهيد تكشف عن وجه تطورى يتعلق بالتصنيف فى التجويد ألا وهو التوقف أمام بيان المقاصد المتعلقة بالعلم؛ ذلك أن ابن الجزرى أفرد فصلا عنوانه (ص:٥٧-٥٨): فيما يستفاد بتهذيب الألفاظ، وما تكون الثمرة الحاصلة عند تقويم اللسان ومن الجدير بالذكر أن المستفاد والثمرة لفظان يترادفان أو يتوافقان مع لفظ المقصد وقد ذكر فيه المقاصد والثمرات التالية:

حصول التدبر لمعانى كتاب الله تعالى، والتفكر فى غوامضه، والتبحر فى مقاصده، وتحقيق مراده سبحانه (والكلام له بنصه :ص٥٧) ويعلل لذلك قائلا (ص٨): "وذلك أن الألفاظ إذا أجليت على الأسماع فى أحسن معارضها، وأحلى جهات النطق بها، حسب ما حث عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بقوله: "زينوا القرآن

بأصواتكم" كما تلقى القلوب، وإقبال النفوس عليها بمقتضى زيادتها فى الحلاوة والحسن".

تحسين إقامة التكاليف، يقول (ص:٥٨): "ذلك أن الألفاظ إذا أجليت على الأسماع فى أحسن عارضها، وأحلى جهات النطق بها... يحصل حينئذ الامتثال لأوامره، والانتهاء عن مناهيه، والرغبة فى وعده، والرهبة من وعيده، والطمع فى ترغيبه، والارتجاء بتخويفه، والتصديق بخبره، والحذر من إهماله، ومعرفة الحلال والحرام... ومن أجل ذلك دأب الأئمة على السكوت التام من الكلام، أو ما يستحسن الوقف عليه، لما فى ذلك من سرعة وصول المعانى إلى الأفهام".

ويذهب ابن الجزرى إلى عدد آخر من المقاصد المتعلقة بعلم التجويد بما هو فرع من العلوم اللغوية تتوجه إلى الظواهر والمسائل الصوتية الخاصة بالذكر الكريم، فسيصنف فيه نوع تصنيف آخر فى صورة منظومة، إذ نظم أرجوزته (المقدمة فيما على قارئ القرآن أن يعلمه) وهى المنظومة المشهورة باسم: المقدمة الجزرية، ومن أشهر شروحها : الطرازات المعلمة فى شرح المقدمة للشيخ عبد الدائم الأزهرى المتوفى سنة ٨٧٠هـ وهذا المقصد الجديد هو : تيسير حفظ مادة هذا العلم، وتيسير تخزينه، إذ النظم معين على حفظ العلم، واسترجاعه، يقول ابن الجزرى (ص٨٣ طبعة دار عمار، عمان بتحقيق نزار حوش سنة ٢٠٠٣م).

وبعد إن هذه مقدمه ... فيما على قارئه أن يعلمه
إذ واجب عليهم محتم ... قبل الشروع أولا أن يعلموا
مخارج الحروف والصفات ... لينطقوا بأفصح اللغات

ففى هذه الأبيات بيان لحكم طلبه، وبعض مسائله التى تعلن عن انتمائه إلى العلوم اللغوية، ومقصده المائل فى: تصحيح النطق بالكتاب العزيز.

ومقصد حفظ العلم، وتيسير استرجاعه بإجراء وضعه فى صورة نظم يعين على ذلك بسبب من الموسيقا التى يتأسس عليها، مقصد يندرج تحت عدد من المقاصد العليا أو الكلية فى الشريعة من مثل: حفظ الدين، وحفظ العقل، والتيسير على المسلمين فى إقامة هذه العبادة أو الفريضة.

ومن أجود من عبر عن وظيفة النظم فى التصنيف فى الحضارة العربية الدكتور: كمال عرفات نبهان فى كتابه (عبقرية التأليف العربى) الذى يقول (ص١٠١ : طبعة مركز دراسات المعلومات، والنصوص العربية القاهرة سنة ٢٠٠٦م): "النظم يحول

النص إلى أبيات؛ أى وحدات لغوية قصيرة ذات أوزان؛ أى: إيقاعات ومسافات منتظمة تساعد على التذكر والاستحضار فهذا الإطار نرى ميزة المنظومات العلمية فى أنها كانت حلا ملائما بل عبقريا لعصرها" وهذا الوصف الذى أطلقه الرجل على عمل المنظومات راجع إلى ما تحققه من غايات من مثل:

تخزين المعلومات، إذ النظم أشبه بعمليات البرمجة للنصوص بتحويلها إلى لغة تسهل اختزان المعلومات فى ذاكرة الإنسان الداخلية.

تيسير استرجاع المعلومات، نظر لحفظها بطريقة تعين على هذا الاسترجاع.

وهذان المقصدان هما اللذان حملا ابن الجزرى وغيره على نظم هذه العلوم اللغوية.

ويستمر التصريح بهذه المقاصد حتى وقت متأخر من عمر التصنيف فى صوتيات القرآن الكريم، فهذا كتاب (جهد المقل) لمحمد بن أبى بكر المرعشى الملقب بساجقلى زاده، المتوفى ١١٥٠هـ وأظهر أنه بالإضافة إلى ما سبق من مقاصد، صنف كتابه للوفاء بعدد آخر من المقاصد من مثل:

تيسير العلم، بتوضيح مسائله.

تقويم العلم، وتسديد النظر فيه، بتتميم المسائل التى كانت ناقصة عند غيره، يقول (١٠٨ مطبعة دار عمار، عمان، بتحقيق الدكتور سالم قدروى الحمد، ٢٠٠١م بيروت): "ولما بذلت جهدى فى تتميم المسائل ذكرا، وتوضيح ما خفى منها... سميت هذه الرسالة جهد المقل".

على أن تاريخ التصنيف فى صوتيات القرآن، أو ما يعرف باسم علم التجويد عرف نمطا مغايرا لما سبق من المصنفات اعتنى بتصحيح أخطاء القارئين، والتنبيه عليها، أى أن ثمة كتبا تفرغت للوفاء بمقصد: تقويم القراءة، وتصحيح أخطاء القارئين، وإرشادهم إلى ما يصحح أخطاءهم.

ولست أشك فى تأثر أمثال هذه المصنفات بتراث عريق فى التراث اللغوى عند العرب يعرف باسم: تراث لحن العامة والخاصة، عني فيه اللغويون برصد الأخطاء اللغوية التى تصيب الكلمات العربية، فظهرت هذه المؤلفات فى التنبيه على أخطأ التلاوة مما يمكن أن تسمى باسم لحن القراء!

ومن هذه المصنفات كتاب (تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين)؛ لأبى الحسن على بن محمد النورى الصفاقسي-

المتوفى سنة ١١١٨هـ [طبعة مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٨٦م ويبدو أنها مصورة عن طبعة تونسية أقدم منها، طمس الناشر الجديد معالمها]!

والنورى منشغل من بداية كتابه بهذه المقاصد التى يمكن تفصيلها فيما يلى:

أولا- إقامة أمر تلاوة الكتاب العزيز، بتيسير علم تجويده بمسائله المتنوعة.

ثانيا- الإعانة على القيام بتكليف شرعى أمر الله به، إذ (ص٢٩) " أمرنا (الله) بتجويده بإعطاء كل حرف بعد إخراجه من مخرجه ما يستحقه من الصفات وما يترتب على ذلك" ثم يقول(ص: ٣٠):"إن إتقان كتاب الله وقراءته كما أنزل من عظيم الطاعات وأعلاها، وأجل القربات وأسناها، ولا يكون ذلك إلا بإتقان مثل هذه الأبواب ".

ثالثا- تحصيل طاعة وقربة وعبادة.

رابعا- طلب التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم والذى تلقى الكتاب العزيز من جبريل، ومرن قراءته عليه، وطلب الاقتداء بسنته العملية فى ذلك يقول(ص٣٠) فيما يروى عن عبادة بن الصامت " كان الرجل إذا هاجر دفعه صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن".

خامسا- الإسهام فى تواصل حمل الذكر الحكيم إلى الأجيال مسلسلا متواتر.

سادسا- محاصرة البدع ومقاومتها فى التلاوة.

سابعا- تصحيح قراءة الذكر الحكيم، واستبقاء السنة المتبعة فى الأمة يقول(٣٠) "إن فائدة مدارسة النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل القرآن كل سنة تعليمه صلى الله عليه وسلم تجويد لفظه وتصحيح إخراج الحروف من مخارجها، و ليكون سنة فى حق الأمة لتجويد التلامذة على الشيوخ قراءتهم".

ثامنا- الترقى فى مدارج الكمال، والإيمان، ذلك أنه صح عنه صلى الله عليه وسلم (ص٣١) أنه قال " خيركم من تعلم القرآن وعلمه" وقال : "إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه، وقال الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة".

تاسعا- طلب الدرجات العلى فى الآخرة.

عاشرا- الإعانة على إقامة التكاليف الشرعية المأمور بها فى الكتاب العزيز إذ الخطأ فى قراءتها مخرج لها عن معانيها المرادة، لو وقع فى الفاتحة مثلا أبطل الصلاة يقول(ص:٨٤): "ومن صلى خلف من يلحن بأم القرآن فليعد إلا أن تستوى

حالتهما... وكذا من لا يميز فى أم القرآن الظاء من الضاد... إذ قلنا الظالين بالظاء، كان معناه الدائمين، وهذا خلاف مراد الله تعالى، وهو مبطل للصلاة"!

وهكذا يتضح لنا اتفاق أهل العلم بصوتيات هذا الكتاب العزيز على عدد من المقاصد العامة و الخاصة التى كانت وراء ظهور هذا العلم الشريف.

(ثالثا) أدبيات الصوتيات العربية الخاصة بمسائل وقضايا مفردة.

لقد عرف التراث اللغوى فى ميدان الصوتيات عددا من المصنفات التى استقلت بمعالجة قضايا ومسائل صوتية تتوزع على ضبط حقيقة بعض الأصوات، أو بيان تنوع نطق بعضها الآخر مما يدخل فى نطاق ما يسمى بالألفونات أو التنوعات النطقية السياقية لصوت ما من الأصوات أو تصحيح كتابة بعض الحروف، توصلا لتصحيح نطقها طلبا لما وراءها من معنى إذ الخطأ فى كتابة بعض الرموز الكتابية أو الخطية مفض إلى تداخل الفونيمات التى يترتب على تداخلها هذا نوع تخليدا فى الدلالات و المعانى.

وفى هذا المبحث تحليل لعدد من الأدبيات كشف عما حكم ظهورها من غايات ومقاصد ونبدأ بما خلفه لنا علماء الصوتيات العربية القدامى فى مجال تصحيح عدد من الأصوات التى يقع بسبب من خطأ النطق فيها تداخل بين الفونيمات أو الحروف مفض إلى تغيير فى المعانى والدلالات.

ولذلك ظهر نوع تصنيف مستقل فى مخارج الأصوات وصفاتها فقط من دون انشغال بقية المسائل الصوتية الأخرى، وقد وصل إلينا من هذه المصنفات:

مخارج الحروف وصفاتها، لابن الأصبغ السماتى الإشبيلى المعروف، بابن الطحان المتوفى ٥٦٠هـ.

الدر المرصوف فى وصف مخارج الحروف، لأبى المعالى الموصلى، المتوفى سنة ٦٢١هـ.

مخارج الحروف؛ لابن وثيق الأندلسى، المتوفى سنة ٦٤٥هـ.

مخارج الحروف وصفاتها وألقابها، للكنانى المتوفى سنة ٧٥٧هـ.

إذ تواتر عندهم أن عنايتهم بذلك كانت سعيا إلى تحقيق المقاصد التالية:

أولا- ضبط قراءة القرآن الكريم، وانتظام التلاوة، يقول ابن الطحان (ص٧٨ طبعة مكة المكرمة، سنة ١٩٨٤م بتحقيق الدكتور / محمد يعقوب التركستانى) إن

دوران قراءة الكتاب العزيز وانتظام أمر تلاوته متوقف على تحصيل معرفة مخارج الحروف.

ثانيا- القيام بالتعبد بإتيان التلاوة؛ لأنه أمر إلهي أبو المعالى الموصلى (ص:٢٤ طبعة دار عمار، بتحقيق الدكتور/ غانم قدورى الحمد ٢٠٠٩م) " ولما كان كتاب الله تعالى أشرف ما ينطق به اللسان، وينطوى عليه الجنان... تعين على القارئ أن يراعى تلاوته،... بإعطاء الحروف حقوقها، ويجتنب تلكيز الهمزات(هو اعتساف نطقها)، وترعيد المدات وإزعاج الحركات"!

ثالثا- ضبط الاشتغال بالتلاوة قواعدها وإحكامها، وهو صرع كلام الكنانى فى رسالته (برقم خاص ١٨١٩/ ورقم عام ٨٣٠٤ بمكتبة الأزهرى، هناء عبد ربه، وقد حققتها ضمن متطلبات درجة الماجستير بإشرافى، بجامعة المنوفية سنة ٢٠١٣م).

رابعا- طلب تحصيل الأجر والثواب والدرجة الرفيع فى الآخرة، بسبب من الانشغال لهذا العلم المفضى إلى تحسين قراءة القرآن الكريم.

وقد ظهر نمط آخر من الكتابات توجه لضبط بعض الأصوات والحروف تعيينا، تحقيقا لصحة نطقها، وابتعادا عن التخليط بينها وبين غيرها مما يفضى إلى فساد فى فهم بعض الآيات الكريمة، أو بطلان بعض العبادات.

ومن هذا النمط الكتب التى أفردت لتصحيح النطق بصوت الضاد من مثل:

رد بغية المرتاد لتصحيح الضاد، لعلى بن سليمان المنصورى، المتوفى سنة١١٢٤هـ.

السيف المسلول فى الرد على منكر المنقول لتصحيح الضاد، لمحمد بن بكر البرسومى المتوفى سنة ١١٨٧هـ.

ج- الرسالة الضادية إسماعيل بن محمد مصطفى القونوى المتوفى سنة ١١٩٥هـ.

د- إتحاف العباد فى معرفة النطق بالضاد، للنابلسى، كان حيا سنة ١٣٢٥هـ.

فهذه جميعا وأمثالها ظهرت خدمة لمقصد خاص يتعلق بتصحيح النطق بواحد من الأصوات العربية التى تحيط بها خصوصية فى ارتباطها بالكتاب العزيز، وفى وقوعها فى سورة الفاتحة، بما لها من منزلة فى إقامة الصلاة تعيينا!

يبدأ المنصورى كتابه فيقرر أن غايته متوجهة إلى إبطال عدد من أشكال نطق الضاد، وتصحيح عد من الانحرافات التى لحقت بها عند عدد من المصنفين، يستوى فى ذلك نطقها قريبا من الظاء، وهى الضاد العجمية، أو نطقها مختلطة بالطاء أو الدال المفخمة إذ يقول (ص: ٧١ طبعة المنوفية بتحقيق الدكتور/ على سيد جعفر سنة

١٩٩٦م): "فإنا ننطق ضادا خالصة، وهو هو نطق الخاصة، لم تمزج بدال ولا طاء، وليست بين الضاد والظاء، وليس فى لغة العرب دال مفخمة ولو كانت لقال القراء : يجب الاحتراز من الدال المفخمة وقول الجهال : ضال مكان دال تحريف فى المقال، كقولهم : هلال فى : حلال" والذى يظهر من هذه التصانيف خلوصها إلى المقاصد التالية:

أولا- الدفاع عن القرآن الكريم، ببيان صحة ما يلزم عند قراءة بعض أصواتها المميزة.

ثانيا- مدافعة البدع والجهالات الداخلة فى نطاق القراءة والتلاوة.

ثالثا- صيانة بعض العبادات من تطرق الإبطال والفساد إليها مما يستلزم القراءة لزوم الشروط والأركان.

رابعا- رد المعتدين بالتلاوة إلى مقام الإتباع لقراءة النبى صلى الله عليه وسلم التى تلقاها عن جبريل عليه السلام.

خامسا- ضبط العلم بحقائق الأصوات وصفاتها، وتصحيح الأخطاء فى عدد المصنفات السابقة، وهو باب من تقويم الفكر تسديد النظر.

وقد جاءت هذه المقاصد واضحة فى مقدمة كتاب البرسوى [نشرة جمال الشايب مكتبة أولاد الشايب، أشمون، المنوفية ٢٠٠٩م) إذ يقول (ص١١) : "هذا سيف مسلول على من ينكر المنقول... ولا يصول إلا لتصديق شبه الضاد بالظاء المعجمتين، وحق أدائهما، وعدم شبه بالطاء المهملة، وحق أداء الضاد الضعيفة المستهجنة؛ لئلا تظن الضاد الصحيحة إياها، وحق أداء الطاء المهملة والراء؛ لأن أكثر قراء الزمان ضيعوا كثيرا من الأداء المنزل بها أداء هذه الحروف الثلاثة " فنحن نرى وضوح المقاصد التى دفعته إلى كتابة ما كتب، وربما صح إضافة المقاصد التالية:

النصح للأمة بعد تفشى أشكال نطق خاطئة لعد من الأصوات فى قراءة الكتاب العزيز.

رفع الحرج والمشقة؛ بتيسير معرفة النطق الصحيح لهذه الأصوات.

تحقيق مراد الله تعالى فى إقامة القرآن الذى أخبر عن كتابه قائلا﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما﴾ [سورة الكهف ١٨/ ١-٢] يقول البرسوى إن إخراج الحروف عن نطقها الصحيح إخراج عن أصلها القويم، والله

تعالى يريد استقامته نظما، وهو معنى قيما، (ص:١٢) :"ولا يقرأ مستقيما إلا بالتجويد... وفى الآية إشارة إلى حرمة اللحن فيه وفرضية تجويده".

ويبدو من هذا الحرص على تصحيح نطق الضاد الذى بلغ درجة التواتر فى التصنيف أن يتغيا مقصدا عظيما يتمثل فى الإعانة على حفظ الكتاب العزيز من طريق حفظ صحة نطق بعض أصواته الصعبة وقد سبق أن قلت فى تقديمى للرسالة الضادية للقونوى (طبعة مكتبة الإيمان، القاهرة سنة ١٤٢٧هـ= ٢٠٠٦م بعناية جمال رفاعى ومحمد أبو مسلم ص١٢): "ولما كان الله سبحانه وتعالى قد وعد بحفظ كتابه، والكتاب العزيز فى أصل تنزله مقروء لم يصح ضياع شئ منه " ومن هنا فإن هذه المصنفات تسهم فى تحقيق هذا الحفظ الموعود به.

ويبدو من هذا الحرص كذلك ظهور مقصد تعميق الشعور بتشريف الذكر الحكيم، والعمل من اجله، وتأكيد تعاليه عن غيره من كلام البشر الذى دخله تطور أصاب نطق الضاد وانحرف بها عن نطقها الصحيح.

ويرتبط بهذه الطائفة من أدبيات الصوتيات القرآنية المفردة ما ظهر للتفريق بين الضاد والظاء فى القرآن الكريم تارة، أو فى لغة العرب بوجه عام تارة أخرى.

ومن أمثلة أدبيات النوع الأول الذى يتوجه إلى حصر ظاءات الكتاب العزيز منعا لمادة الاختلاط بينها وبين الضاد:

الظاءات فى القرآن الكريم، لأبى عمر الدانى المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

كتاب الظاءات القرآن الكريم، نظم أبى العباس أحمد بن عمار المقرئ المتوفى سنة ٤٤٠هـ بشرح أبى الطاهر التجيبى البرقى المتوفى فى النصف الثانى من القرن الخامس.

ظاءات القرآن، للسرقوسى المتوفى سنة ٥٩١هـ.

درة القارئ منظومة فى ظاءات القرآن الكريم، لعبد الرازق الرسعنى المتوفى سنة ٦٦١هـ.

ومن أمثلة أدبيات النوع الثانى المتوجهة إلى التفريق بين الضاد والظاء فى لغة العرب بوجه عام:

الفرق بين الضاد والظاء، لأبى عمرو الدانى المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

كتاب الفروق بين الظاء والضاد، لأبى القاسم الزنجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ.

كتاب فى معرفة الضاد والظاء، المنسوب إلى أبى الحسن على بن أبى الفرج بن أحمد القيس الصقلى، المتوفى سنة ٤٧٥هـ.

زينة الفضلاء فى الفرق بين الضاد والظاء، لأبى البركات ابن الأنبارى، المتوفى سنة٥٧٧هـ.

الاعتماد فى نظائر الظاء والضاد، لابن مالك المتوفى المتوفى سنة ٦٧٢هـ.

والملحظ الظاهر هنا أن عددا من علماء التجويد سبق إلى التصنيف فى هذا المجال، وهو الأمر الذى يدعم تفسير ظهورها من جانبنا، وأن مقاصده مرتبط بمقاصد ظهور علم التجويد بما هى علم مشغلته تحقيق إقامة تلاوة الذكر الحكيم من باب ضبط العلم بصوتياته جميعا.

وهذا القصد ظاهر فى مقدمات هذه الرسائل جميعا يقول أبو عمرو الدانى (ص٤١ بتحقيق الدكتور على حسين البواب، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ن الرياض ع١٣/ ١٤ لسنة ١٤٠٣هـ/ ١٤٠٤هـ): "إنى اختصرت فى هذا الجزء ورود حرف الظاء خاصة فى كتاب اله تعالى، وحصرته فى أصول تسهل على الطالب، ويقرب حفظها على القارئ الدائب ويعرف أن ما عدا ما نذكره من ذلك هو من حروف الضاد" ففى المدخل يتضح لنا مقاصد أساسية تتلخص فى:

أولا- ضبط نطق الضاد ببيان مواضع الظاء، وهو مقصد يتوخى تصحيح ما يمكن أن يصيب الضاد من انحراف فى تحصيل نطقها فى الذكر الحكيم.

ثانيا- إعانة طلبة العلم والتيسير عليهم.

ثالثا- حفظ الكتاب العزيز بحفظ ما عن طريقه إن لم يحفظ فساد فيه.

وهذه المقاصد جميعا متواترة عند جميع ماعن صنف فى هذا الباب العلمى وهى ذات المقاصد التى أعلن عنها أصحاب مصنفات الفرق بين الضاد والظاء، يقول الدانى (تحقيق الدكتور أحمد كشك، مكتبة الزهراء، القاهرة سنة ١٤١٠هـ=١٩٩٠م، ص ٥٩): "إن مما يكمل به لطالب القرآن الكريم، ويحصل لهم به اسم الدراسة – معرفة الفرق بين الضاد والظاء فى كتاب الله عز وجل، واستعمال اللغة لكل واحد منهما على هيئته، وإخراجه من موضعه على حقيقته ومن لم يُعَرِّف القارئ الفرق بينهما، ولا استعمل ذلك فيهما فى قراءته، سوى بينهما فى لفظه صار لاحنا مبدلا للتلاوة، ومغيرا لمعنى كلام الله عز وجل، لاختلاف ما بينهما" ففى هذا الكلام بيان للمقاصد التالية:

أولا- صيانة المسلم من الوقوع فى اللحن فى التلاوة، وما به يكون آثما مخطئا.

ثانيا- صيانة ملاك الله تعالى من تطرق التبديل إليه، وحف تغيير المعنى على آياته.

ثالثا- النصح والإرشاد للمتعلمين، بتمكينهم، تحصيل ما به يكون أمر درايتهم وتقدمهم فى استقامة تلاوتهم ومعرفتهم بالكتاب العزيز.

رابعا- تصحيح العلم وتقويم مسائله فى ميدان تلاوة الكتاب الكريم ببيان الفروق بين ما يمكن أن يقع بينهما التخليط والاضطراب.

وإذا كان أبو عمرو الدانى من رجال العلم بتجويد القرآن الكريم، فإن من جاء بعده ممن اعتنى بهذا الباب حافظ على هذه المقاصد وأضاف إليها مقصد التوسع فى حفظ اللسان العربى بحفظ ما يمكن أن يكون مادة للخلط فى المعجم العربى بوجه عام وهو ما يعنى اتساع دائرة رعاية مقصد تصحيح النظر فى علم تجويد القرآن إلى تصحيح النظر فى علم ألفاظ اللسان العربى عموما والدائرة على الضاد والظاء.

وقد اتسع الأمر فظهرت مصنفات أوسع إلى ذكر الفرق بين عددٍ أكبر من الحروف منعا لمادة الغلط بين كثير من الخواص فضلا عن عوامهم، على ما يظهر ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١هـ فى كتابه الفرق بين الحروف الخمسة، وهى: الظاء والضاد والذال والسين والصاد.

ومن الأدبيات الصوتية المنضوية تحت هذا النمط أيضا ما ظهر للعناية بشروط تجويد الكتاب العزيز مما يدخل فى التنويعات النطقية لبعض الأصوات التى يتنوع نطقها بتنوع سياقاتها وهى موزعة على نوعين:

الأول- كتب ورسائل تعنى ببيان اللحن الجلى واللحن الخفى، وبيان كيفية تجنبهما، ومحاصرتهما حال القراءة من مثل: كتاب التنبيه على اللحن الجلى واللحن الخفى، لأبى الحسن على بن جعفر السعيدى، المتوفى سنة ٤٠٠هـ تقريبا.

الأخير- كتب ورسائل تعنى ببيان طرق نطق بعض الأصوات التى وردت سنة القراءة بها منوعة تبعا لسياقاتها، كصوتى اللام والنون من مثل: كتاب الاختلاف القراء فى اللام والنون، للسعيدى المتوفى سنة ٤٠٠هـ تقريبا.

وأمثال هذه المصنفات تهدف إلى مجموع المقاصد التى استهدفتها كتب صوتيات القرآن الكريم بشكل عام مع عناية خاصة بمقصد تعظيم الذكر الحكيم بتلاوته بالطريقة المخصوصة التى تجعله فريدا فى قراءته؛ إذ مراعاة شروط القراءة الصحيحة، وفروق ما بين التنويعات المختلفة للحرف الواحد عند نقطة تكاد تكون من خصائص

تلاوة الكتاب العزيز وهذه المراعاة طريقها وسبيلها حاصل بهذه الرسائل التى تعنى ببيان طرق نطق أمثال هذه الأصوات تعيينا.

ويدخل فى أدبيات هذا النمط كتب الوقف والابتداء بما أن الوقف ظاهرة صوتية يعنى قطع الصوت على آخر الكلمة (كما نقل الدكتور عبد الكريم إبراهيم صالح فى كتابه: الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى فى القرآن الكريم، جدار السلام، القاهرة ١٤٢٩ه =٢٠٠٨م، ص١٨) أو هو: " فاصل يقع بين أجزاء الكلام" على ما قرره الدكتور رمزى البعلبكى فى: معجم المصطلحات اللغوية (ص٣٦٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٠م).

وقد وصل إلينا عدد من الكتب تناولت هذه الظاهرة من مثل:

كتاب القطع والاستئناف، لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ .

المكتفى فى الوقف والابتدا فى كتاب الله عز وجل لأبى عمرو الدانى المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

علل الوقوف، للسجاوندى المتوفى سنة ٥٦٠هـ.

المقصد لتخليص ما فى المرشد فى الوقف والابتدا، لزكريا الأنصار المتوفى سنة٩٢٧هـ.

منار الهدى فى بيان الوقف والابتداء، لأحمد بن محمد عبد الكريم الأشمونى الشافعى.

كما وصل إلينا عدد من الكتب تناولت بعض الوقوف فى الكتاب العزيز لا كل مواضعه من مثل: شرح كلا وبلى ونعم والوقف على كل واحدة منهن فى كتاب الله عز وجل، لمكى بن أبى طالب القيس المتوفى سنة ٤٣٧هـ.

يقول النحاس (بتحقيق الدكتور أحمد خطاب العمر، وزارة الأوقاف، بغداد سنة ١٩٧٨م، ص:٧٣) إن الله تعالى أمر بترتيل الكتاب العزيز، وقراءته على الناس على مكث، "والقراءة بالترتيل والمكث واجبة بنص القرآن، والترتيل: التبيين فمن التبيين تفصيل الحروف، والوقف على ما تم معناه منها " وبهذا يكون ظهور أمثال هذه المصنفات تحقيقا لمقاصد ظاهرة هى:

أولا- إقامة التكليف القاضى بترتيل الكتاب العزيز، ولا يكون من غير تهيئة أسبابه ببيان الوقوف وأنواعها.

ثانيا- تحصيل التأسى بالنبى الكريم، صلى الله عليه وسلم، فى قراءته المروية لنا.

ثالثا- حفظ أساس الدين بتصحيح أداء أصله الأعظم.

رابعا- تهيئة الأسباب لفهمه على الوجه اللائق به، منعا للغلط فى إتمام ما لم يتم من آياته.

خامسا- فتح الباب فى تدبر آثار الوقف فى المواضع المختلفة، بما هو باب لاستخراج كنوز من معانى الكتاب العزيز، إذ الوقف منتج للمعانى.

ويظهر من ترتيب هذه الكتب مصحفيا إرادة إعانة المتعبدين على تحصيل التدبر، وتيسيره بصناعة ترتيب موافق لترتيب سور المصحف؛ لتيسير المتابعة عنده لتعلم التلاوة.

ويعد السجاوندى أعظم من توجه لتحقيق هذه الغاية، ببحثه فى علل الوقوف من جهة المعنى، وفيه فوائد لا تحصى فى هذا الباب الخطير يقول مثلا (١/ ١٠٨ بتحقيق الدكتور / محمد بن عبدالله بن محمد العبيدى، مكتبة الرشد، الرياض، سنة ٢٠٠٦م): "فأول ذلك قوله تعالى:﴿وما هم بمؤمنين﴾؛ إذ لو وصل بقوله: يخادعون الله [سورة البقرة ٢/ ٩] صارت الجملة صفة لقوله: بمؤمنين فانتفى الخداع عنهم، وتقرر الإيمان خالصا من الخداع، كما تقول : ما هو بمؤمن مخادع ومراد الله تعالى: نفى الإيمان، وإثبات الخداع".

وإذا كانت مصنفات الوقف بما هى خادمة لبعض النظر الصوتى فى الذكر الحكيم استهدفت عددا من المقاصد العامة كما سبق، فإن ما ظهر منها خاصا ببيان مسائل خاصة بالوقف على بعض ألفاظ مخصوصة فى الذكر الحكيم، ككتاب مكى بن أبى الطالب يشترك معها فى المقاصد السابقة ويزيد عليها:

تصحيح النظر، وتقويم الفكر فى مشكلات خاصة تتعلق بمواضع خاصة بكلا وبلى ونعم، والحكم فى الأليق بالقراءة من جهتها.

صيانة المعنى المستفاد من هذه المواضع من تطرق الاختلاط والغلط إليه، بتفصيل القول فى مذاهب الوقف فيها فى كل موضع من مواضعها.

ثالثا- الشفقة بالمتعلمين، ورفع الحرج عنهم، بتفصيل القول فى المواضع ثم باستخلاص قواعد كلية حاكمة.

يقول مكى (ص١٧ بتحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات، دار المأمون للتراث، دمشق، سنة ١٤٠٤هـ=١٩٨٣م): "وقد رغب إلى راغبون فى تفسير: كلا، وبلى،

والوقوف عليهما فى كتاب الله عز وجل، واختلاف العلماء فى ذلك، وما يختار من أقوالهم، وما نأخذ به فيهما، فسارعت فى ذلك رغبة فى الأجر".

ويؤكد الرجل مقصده الذى قررناه فيقول (ص٢٠): "يوقف عليها إذا كان ما قبلها يرد ولا ينكر، ويبتدأ بها إذا كان ما قبلها لا يرد ولا ينكر، وتوصل بها قبلها وما بعدها إذا لم يكن قبلها كلام تام... وهذا المذهب أليق بمذاهب القراء، وحذاق أهل النظر وهو الاختيار وبه آخذ".

وتحصيل هذه المقاصد جميعا لا يمكن بغير تفصيل أنواع الوقوف، ومواضعه فى الذكر الحكيم، وما يتوقف على كل موضع من معان وتفسير، وبالتالى ما يترتب عليها من أحكام مختلفة فى الاعتقاد والعبادة والأخلاق.

ويرتبط بهذه الغايات كذلك ظهور أدبيات تتشابك مع بعض المباحث الصوتية القرآنية من جهة كونه كتابا، جمعه المسلمون منذ زمان مبكر جدا، للنظر فيه، والقراءة منه، وتدبره وهى المصنفات التى عرفت باسم هجاء المصاحف وقد تنوعت فمنها ما جاء محيطا بهجاء المصحف كاملا، والمصاحف كلها، ومنها ما جاء مقتصرا على بيان هجاء حروف بأعيانها.

والخطاطة أو علم اللغة الكتابى فرع مهم من فروع علم اللغة، لارتباطه بتحصيل المعانى من مادة المكتوب وقد أدرك العرب القدماء ذلك، وهو الأمر الذى يفسره توجه علماء اللغة أصالة بخدمة هذه الفروع بمصنفاتهم فى أدب الكتابة، وقواعدها من جهة رسم الحروف والكتابة الخطية.

وقد وصل إلينا من تراث هذا المجال عدد كبير من أدبيات الكتابة أو الرسم عامة، أو خاصة برسم المصحف الشريف، أو خاصة برسم بعض الحروف التى تحتاج إلى نوع ضبط يمنع من مادة الغلط فيها.

فمن النوع الأول الخادم للكتابة العربية بشكل عام ما يلى:

أ - أدب الكاتب، لابن قتيبة، المتوفى ٢٧٦هـ.

ب- أدب الكتاب، لأبى بكر الصولى، المتوفى ٣٣٦هـ.

ج- صناعة الكتاب، لأبى جعفر النحاس، المتوفى ٣٣٧هـ.

د- الاقتضاب شرح أدب الكتاب، للبطليوسى، المتوفى سنة ٥٢١هـ.

ومن المدهش اتفاقهم على طلب ضبط الكتابة باسم تقويم اليد مرة وإقامة الهجاء مرة أخرى، وهما تسميتان ناتجتان من النظر فى المقاصد، إذ فيهما:

أولا- تقويم النظر وتسديده بتصحيح قواعد الكتابة وقوانينها، طلبا لما وراءها من صحة المعانى والدلالات المختزنة فى الكتابة.

ثانيا- تصحيح الرسم، وإقامة الخط، والاستقامة أو الإقامة بتحقيق انتظام قواعده، ورسومه وقوانينه وسيلة إلى مقصد صحيح يرمى إلى تصحيح قراءة الكتاب العزيز إن تعلق المرمى برسمه، وهو سبيل لفهمه وتحصيل تدبره، ونيل الثواب بالنظر فيه، إذ جاءت الأخبار بنشر المصاحف عند القراءة فيه (انظر: مقالتى عن: التربية اللغوية للصحابة، ومجالس الاقتراء فى العصر النبوى، بمجلة بحوث كلية الآداب، ع ٨٧ لسنة ٢٢ يوليه سنة ٢٠١١ ص:٣ وما بعدها).

وقراءة هذا التراث كاشف عن المقاصد التالية:

أولا- حفظ الكتاب العزيز بتأمين مادة الحفظ المحققة للجمع وهى الكتابة يقول الصولى (ص: ٣٧ بتحقيق سميح إبراهيم صالح، ومراجعة : إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق سنة ٢٠٠٥م): "وبالكتابة جمع القرآن".

ثانيا- حفظ السنة المطهرة، بتأمين وسيلة جمعها وتدوينها.

ثالثا- تحصيل ما به كمال مروءة الإنسان، إذ الكتابة فضيلة الحرمان منها منقصة فى عموم البشر؛ باستثناء النبى صلى الله تعليه وسلم نفيا لتوهم تعلمه من الكفار!

رابعا- تيسير قراءة الذكر الحكيم، وإقامة شعيرة التعبد بها.

خامسا- تفصيل ما به محاصرة الاختلاط فى الحروف المتشابهة خطا ورسما.

سادسا- ترقية العقل، بترقية العلوم، بحفظها وتدوينها، إذ الحفظ خوان!

سابعا- حفظ الدين وصيانته، يقول النحاس (ص٢٥ بتحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف، دار العلوم العربية، بيروت ١٩٩٠م): "ومن العلم صناعة الكتاب، وقد وهم من زعم أن أحكام الكتابة مباينة لأحكام الشريعة؛ لأن ذلك مخالف لما يوجبه الدين والعقل؛ لأن الكتابة فرع من فروع الشريعة والشريعة أصل الكتابة، السياسة للملك والملك لا قوام له إلا بالدين، فقد تبين أن الكتابة فرع من فروع الدين، وما كان فرعا لشئ لم يبان وأحكام الكتابة ملائمة لأحكام الشريعة".

وقد ظهر مع هذه المدونات العامة فى أصول الكتابة الخطية وقوانينها، وقواعدها مجموعة أخرى اختصت بهجاء المصحف الشريف وحده، من مثل:

كتاب البديع فى معرفة ما رسم فى مصحف عثمان رضى الله عنه، لابن معاذ الجهنى الأندلسى، المتوفى ٤٤٢هـ.

المحكم فى نقط المصاحف، لأبى عمرو الدانى، المتوفى سنة ٤٤٤هـ.
المقنع فى رسم مصاحف الأمصار، لأبى عمرو الدانى، المتوفى سنة ٤٤٤هـ.
مختصر التبيين لهجاء التنزيل، لأبى داود سليمان بن نجاح، المتوفى سنة ٤٩٦هـ.

وهذه الكتب وأمثالها ظهرت لخدمة القرآن الكريم بطريق مباشر واضح من جهة رسمه أو خطه وصيانة المصحف رسما كصيانته تلاوة ومن هنا فإن هذه الكتب هى الوسيلة المحققة لهذا المقصد المنفذ لأمر الله تعالى، مراده بحفظ الذكر العزيز يقرر ابن معاذ الجهنى (بتحقيق الدكتور غانم قدورى الحمد، دار عمار، عمان، ٢٠٠٠م، ص ١٩) إن معرفة الرسم طريق لتمام معرفة القرآن الكريم، فيقول : "هذا كتاب أذكر فيه... معرفة ما رسم فى مصحف عثمان رضى الله عنه... مما لا يستغنى عنه قارئ القرآن من معرفته والوقوف عليه " فهذا تصريح بمقصد العناية بالرسم بما هو فرع من فروع العلوم اللغوية المرتبطة بالأصوات من أقرب طريق، وبيان هذه المقاصد ظاهر فيما يلى:

أولا- معرفة الرسم طريق لتمام المعرفة بالقرآن.

ثانيا- طريق الإقامة تلاوته الصحيحة، وهو أمر تعبدى مأمور به على التكاليف الواجب.

ثالثا- صيانة المصحف من الخطأ فى رسمه وخطه.

ويتفرع عن هذه المقاصد مجموعة أخرى تتولد عنها وترتبط بها تحيط بتحصيل معانيه، وتيسير تدبره، وإقامة تكاليفه، وتنفيذ مطالبه وأوامره، والكف عن مناهيه ومزاجره بالإضافة إلى ترقية المعايش، وتحصيل الكمالات الإنسانية بترقية الملكات والمهارات فى الأداء والنطق.

ويفصل أبو عمرو الدانى بعضا من هذه المقاصد فى مقدمة المحكم فى نقط المصاحف (ص: ١ بتحقيق الدكتور/ عزة حسن، دار الفكر، دمشق سنة ١٩٨٦م): "هذا كتاب علم نقط المصاحف وكيفيته على صيغ التلاوة، ومذاهب القراءة، فيما اتفقوا عليه، وما اختلفوا فيه، وعلى ما سنه الماضون، واستعمله الناقطون، وما يوجبه قياس العربية، وتحققه طريق اللغة، مشروحا ذلك بأصوله وفروعه، مبينا بعلله ووجوهه، مع ذكر السنن الواردة عن السلف الماضيين والأئمة المتقدمين فى النقط" وخذه المقدمة القصيرة تكشف عن عدد من المقاصد المهمة، يمكن استخلاصها فيما يلى:

أولا- إقامة تلاوة الكتاب العزيز، وتهيئته أسباب ذلك ببيان نقط حروفه وهو أمر تعبدى يدخل فى إطار مقصد أعلى منه هو حفظ الدين.

ثانيا- تحقيق الوحدة المعرفية، يوصل ماضى الأمة فى هذا العلم بما جد من أمرها فيه والإفادة من جهد الماضين والبناء عليه، بتكامل علم النقط بربطه بالقياس اللغوى.

رابعا- تأسيس العلم، بشرح أصوله، وتفريع مسائله، وتعليل ظواهره، وتنظيم وجوهه وتطويره بربطه بسنن السابقين فيه.

خامسا- تصحيح مذاهب القراء، بترجيح الراجح مما اختلفوا فيه، وهو نوع مقصد متولد عن مقصد أعلى منه متعلق بتصحيح النظر، وتسديد الفكر، وضبط الشريعة بضبط أدلة الاستنباط المعتمدة الواردة فى الذكر الحكيم.

سادسا- بيان الجهد العظيم الذى بذلته الأمة على امتداد تاريخها من أجل العناية بكتابة الكتاب العزيز، وتحسينها، وتطويرها.

سابعا- رفع المشقة والحرج عن المسلمين الضعاف، وإعانتهم على قراءة الذكر الحكيم بلا مشقة أو عسر، والقراءة نوع تعبد مأمور به، ومثاب عليه.

وهذه القائمة من المصنفات الخاصة بالمصحف من جهة ورسمه تعكس ملمحا فريدا لم يتهيأ لغيره من الكتب فى تاريخ العالم؛ حياطة وعناية وتقديسا وتنزيها وتشريعا وتوجها إلى حفظه، وبيان رفعة منزلته، وكلها تنبئ عن نوع تعميق لمعانى تنزيه الله تعالى إيمانا وتصديقا عمليا بكتابه الخاتم المنزل على نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم.

وربما ارتبط بهذا النمط من التصنيف نوع مصنفات توجهت إلى ضبط كتابة بعض الحروف التى يمثل تحصيلها نوع صعوبة؛ بسبب من خصائص لهجة قريش تعيينا فى سلوكها مع نطق الهمزة، أو بسبب من تفاوت اللهجات العربية فى نطق أصوات العلة : صحة أو تسكينا، أو إمالة، أو انفتاحا؛ من أجل ذلك انشغل علماء اللغة وعلماء علوم القرآن معهم بالتصنيف فى ضبط رسم هذه الحروف، تحقيقا لعدد من المقاصد المهمة.

ومن هذه الكتب أو الرسائل ما يمكن توزعها على المجموعات التالية:

أ - المجموعة الأولى: تتعلق ببيان الألفات وأصولها من مثل:

الألفات، لابن خالويه، المتوفى سنة ٣٧٠هـ.

الألفات ومعرفة أصولها، لأبى عمرو الدانى، المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

ب – المجموعة الثانية : تتعلق ببيان الألفاظ المهموزة التى لابد من تصحيح الهمزة وتحقيقها فى نطقها، من مثل:

١ – الهمز، لأبى زيد الأنصارى، المتوفى سنة ٢١٥هـ.

٢-الألفاظ المهموزة، لابن جنى، المتوفى سنة ٣٩٢هـ.

٣ – عقود الهمز، لابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ.

ج- المجموعة الثالثة : تتعلق بالتفريق بين ما يكتب بالألف وما يكتب بالياء، من مثل:

عمدة الأدباء فى معرفة ما يكتب بالألف والياء، لأبى البركات بن الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧هـ.

منهج من ألف فيما يرسم بالياء ويرسم بالألف، لابن علان المتوفى سنة ١٠٥٧هـ.

د- المجموعة الرابعة: تتعلق ببيان المقصور من الممدود، وهو راجع إلى الاختلاف فى نطق الهمزة تحقيقا وتسهيلا، من مثل:

المقصور والممدود، للفراء، المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

المقصور والممدود، لابن السكيت، المتوفى سنة ٢٤٤هـ.

شرح المقصور والممدود، لابن دريد الأزدى، المتوفى سنة ٣٢١هـ.

المقصور والممدود، لنفطويه، المتوفى سنة ٣٢٤هـ.

الممدود والمقصور، لأبى الطيب الوشاء، المتوفى سنة ٣٢٥هـ.

المقصور والممدود، لأبى على القالى، المتوفى سنة ٣٥٦هـ.

المقصور والممدود، لابن ولاد، المتوفى سنة ٣٣٢هـ.

مقاييس المقصور والممدود، لأبى على الفارسى، المتوفى سنة ٣٧٧هـ.

شرح مقصورة ابن دريد الأزدى، للخطيب التبريزى، المتوفى سنة ٥٠٢هـ.

شرح مقصورة ابن دريد، للمهلبى، المتوفى سنة ٥٧٢هـ.

شرح قصيدة المقصور والممدود، لابن هشام اللخمى، المتوفى سنة ٥٧٧هـ.

وطول هذه القائمة راجع إلى عدة أسباب نذكر منها:

أولا- خطر القضية، وما ينشأ عن الخلط فيها تداخل الكلمات المتباينة، وما يترتب على ذلك من تحريف الدلالات، ويتزايد الخطر إذا كان ذلك واقعا فى الكتاب والسنة.

ثانيا- خطر القضية من جهة ما قد ينشأ عنها فى قراءة الذكر الحكيم بإخراج بعض الكلمات عن حق أدائها ونطقها، وهو ما يترتب عليه نوع لحن فى الذكر الحكيم.

ثالثا- تنوع الكتب الجامعة لألفاظ المقصور والممدود، ضيقا واتساعا بإخراج بعض الكلمات عن حق أدائها ونطقها، وهو ما يترتب عليه نوع لحن فى الذكر الحكيم.

ثالثا- تنوع الكتب الجامعة لألفاظ المقصور والممدود، ضيقا واتساعا.

رابعا- تنوع هذه الكتب فى المنهجية التصنيفية، ما بين منثور منظوم، وما بين متون وشروح.

وهذا التنويع محقق لمقصد التيسير على من يطلب علم ذلك الأمر اللغوى، فإنه يجد ما يوافق طبعه وملكاته، من جهة الترتيب، وما يلزمه من معلومات سابقة.

وأوسع من وقف عند مقاصد التصنيف فى المقصور والممدود كان أبا على القالى، رحمه الله، فقرر أن مدار الغايات على ما يلى:

أولا- تحسين صناعة الأدب والكتابة الفنية، وهو من حملة مطالب العمران.

ثانيا- تحسين صناعة الكتابة والترسل، وهى من جملة مطالب سياسية الملك وإدارة الدولة، مما يدخل بها فى جملة مفهوم السياسة الشرعية.

ثالثا- تحسين المعايش، وجودة الحياة.

رابعا- التيسير على المستعملين من الأدباء والكتاب بصناعة ما ييسر لهم الوقوع على مرادهم من الكلمات المقصورة والممدودة، يقول الرجل(ص:٦ بتحقيق الدكتور أحمد عبد المجيد هريدى، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٤١٩هـ=١٩٩٩م): فكان : "تأليف هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه العالم المبرز ولا الأديب المتقدم، ولا الكاتب المرسل، ولا الخطيب المصلق، ولا الشاعر المفلق؛ إذ كل طائفة ممن ذكرنا محتاج إلى عرفة الممدود والمقصور، للفظ والخط" ومن هنا فإن هذه المقاصد الخاصة لا تتحقق من غير وسيلة تدوين ألفاظ المقصور والممدود، وجمعها، وترتيبها بنوع ترتيب مناسب لطبائع المستعملين المختلفة.

إن لمعرفة المقصور والممدود أغراضا نبيلة، وبهذه الجملة الموجزة عبر ابن هشام واللخمى عن دوافع شرحه لمقصورة ابن دريد فقال(١/ ٩٧ بتحقيق الدكتور محمد حامد الحاج خلف، وزارة الأوقاغ المغربية، الرباط سنة ٢٠٠٧م): إنه تهيأ لشرح

قصيدة ابن دريد بسبب من "نبل أغراضها.. واستفادة قارئها" وهاتان الجملتان القصيرتان تضمان عددا من المقاصد المهمة التى ذكرناها.

والمجموعات الثلاثة الأولى من هذا النمط صريحة فى بيان مقاصدها فى مقدمات أصحاب المصنفات فيها تقول ابن خالويه فى الألفات (ص١٣ بتحقيق الدكتور على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض سنة ١٩٨٢م): "إنك سألتنى شرح أصول الهمزات التى فى أوائل الأسماء والأفعال والحروف، وما جاء من ذلك فى كتاب الله تعالى خاصة، إذ كانت كثيرة الدوران فى القرآن... فأعلمك...أنى قد أجبتك إلى ما سألت".

وقريب منه ما قرره أبوعمرو الدانى فى مقدمة كتابه(الألفات ومعرفة أصولها) (ص: ٢٣-٢٤ بتحقيق الدكتور غانم قدورى الحمد، دار عمار، عمان، سنة ٢٠٠٨م)، وقصرها على ما جاء منها فى الكتاب العزيز فقط.

وهذان النقلان وأمثالهما مما جاء فى مقدمات أصحاب هذه التصانيف تكشف عن المقاصد الخاصة التى من أجلها توجه أصحابها إلى وضعها، فهى تصرح بما يلى:

أولا- غرض خدمة الكتاب العزيز، وتيسير معرفته، وقراءته.

ثانيا- تهيئة الأسباب إلى فهمه، بطرد أسباب الخلط الذى يمكن أن ينشأ بين الحروف المتداخلة فى صناعة الخط والكتابة، وما يترتب عليها من أخطاء فى القراءة، وما يتولد عنها من أخطاء فى الصيغ تتحر فى المعانى نتيجة لذلك.

ثالثا- تصحيح المعرفة بتصحيح سبيل تدوينها وحفظها.

رابعا- ترقية العقول، بضبط ما تحصله بالقراءة الصحيحة.

وهذه الغايات جميعا فروع متولدة عن مقاصد أعلى منها من مثل:

حفظ الدين بحفظ أصله الكريم.

حفظ الدين بتيسير فهم أصله وتدبره.

حفظ الدين بتيسير لإقامة العبادات والتكاليف.

حفظ العقل بضبط مصادر علومه(ضبط الكتابة توصلا إلى ضبط القراءة وتصحيحها).

تنمية المعايش الإنسانية، بترقية العلوم، وضبط التعليم.

التيسير على الخلق، بتيسير تحصيلهم للعلوم من وسائل صحيحة منضبطة منعا لهدر أوقاتهم.

الإعانة فى ترقية الملكات الإنسانية، وتنمية المروءات؛ لذا الكتابة نوع فضيلة، ومنقبة من المناقب.

خامسا- وربما ارتبطت عملية تحسين المقروئية بمقصد أعلى هو حفظ المال، لأن فى ضبط الكتابة منعا ووقاية من إهدار المال، كما جاء فى فوائد ودراسات علم اللغة المعاصرة المعنية بضبط الكتابة ويرتبط بهذه الأدبيات الصوتية نمط من المصنفات اتجهت إلى معالجة قضايا فى الصميم من الدراسة الصوتية من منظور إنتاج الكلام، ومعالجة عيوبه، وهى تمثل إطارا كليا لعلم الأصوات فى هذه الحضارة العربية.

ومن المثير للانتباه أن الذين انشغلوا بمعالجتها كانوا من أهل العلوم الحكمية والتجريبية. فقد وصل إلينا من هذه المصنفات ما يلى:

رسالة فى اللثغة، للكندى الفيلسوف.

رسالة أسباب حدوث الحروف، لابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ.

وتذكر الرسالة الأولى بما كان من الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ فى البيان والتبين (١/ ١٤) والمبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ فى الكامل (٢/ ٧٦٢)؛ وغيرهما ممن ذكرهم يوهان فك فى كتابه (العربية / ص :١٢٢ من ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجى، القاهرة، سنو ١٩٨٠م، ص ١١٥ ومن ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار، مكتبة الخانجى، القاهرة سنة١٩٥٠م) إذ عالجوا اللثغة لمقاصد تبرئة الخطباء وأهل الأداء والبيان من العوارض المانعة من الخطابة والإلقاء، أو المهجنة والمقبحة لهما.

وفحص رسالة اللثغة للكندى ينتج الكشف عن بعض المقاصد كانت فى خلفية إنجازها من مثل:

أولا- تهيئة الأسباب للوقاية من عيوب النطق الناشئة عن أسباب مرضية (تشنج/ أو استرخاء) على تعبير الرسالة.

ثانيا- التأتى لحفظ الكتاب الكريم، بحياطة حروفه من تطرق الخطأ إليها؛ إذ بيان الأصل لازم تحتاج إليه العربية، لإقامة النطق الصحيح بها، فى جوانب صور اللثغة فيها.

ثالثا- صيانة المرء مما يمكن أن يلحقه من المعرة، ونقصان المروءة، إذ اللثغة مستهجنة عموما، ومستهجنة بدرجة أعلى لما يتصور فيعلم الناس، أو يواجههم بالكلام والخطابة.

ومن ثم فإن صيانة اللسان من اللثغة تحقيق لمقصد كمال المروءة.

رابعا- تصحيح طريق التعليم؛ بإصلاح لسان المعلمين.

خامسا- البعد عن مواطن الإرباك بسبب من تداخل الحروف عند النطق بها على من به عيب اللثغة.

أما ما يبدو من رسالة ابن سينا من المقاصد فأكثر مما بدا من عمل الكندى، إذ بالإضافة إلى سعيه إلى ما سبق الكشف عنه عند الكندى ظهرت غايات أخرى من مثل:

أولا- الكشف عن نعمة الله تعالى وتفضله على خلق القدرة على الكلام فى الإنسان، وهو مقصد باعث على شكره تعالى وتقدير منته.

ثانيا- الإعانة على خدمة مسائل التجويد ببيان الفروق الجزئية فى إنتاج كل صوت على حدة، وماهية كل صوت منفردا، مما يدخل فى تحقيق حق الحروف الذى يعد تجاوزها لحنا جليا، يفسد تلاوة القارئ، وربما أبطل بعض عباداته.

ثالثا- الإعانة على خدمة مسائل التجويد ببيان الفروق فى التنويعات النطقية التى تلحق بعض الأصوات، التى يلحقها أنواع نطق متعددة، مما يدخل فى تحقيق مستحق الحروف الذى يعد تجاوزها لحنا خفيا، يخرج القارئ عن سنة القراءة المتبعة.

خاتمـــة:

وبهذا يتضح لنا أن ظهور علم الصوتيات فى الحضارة العربية حقق عـددا كبـيرا من مقاصد هذا الظهور، بمصنفات عامة فى صوتيات العربية، وخاصـة فى صـوتيات القرآن الكريم، ومستوعبة لقضايا هذا العلم جميعا، ومنفردة ببعض قضاياه المشـكلة، وبمصنفات مرتبطة به عالجت مشكلات الكتابة والخط من جهة تكاملها مع الدراسة الصوتية بجملة متنوعة من الأنواع طالت قـوانين الكتابـة العربيـة عمومـا، أو حفـظ رسم المصحف خصوصا، أو التفريق بين عدد من الحروف فى الخـط إن تنضـبط نـتج عنها مخاطر تهدد التلاوة والفهم الصحيح وتحصيل العلوم، ليتقرر مـن ذلـك كلـه أن المنجز اللغوى فى المجال الصوتى فى الحضارة العربية الإسلامية كـان يسـير فى طريقـه الطبيعى، لولا التراجع الحضارى التى أصاب الأمة منـذ وقـت لـيس بالقصـير وهـو الأمر الذى يفرض تعـين مسـارات جديـدة للبنـاء عـلى هـذا المـنهج الطيـب، ترقيـة وتصحيحا وتطويرا وفتحا لآفاق جديدة.

فهرس